

أصبح من البدهيات أن القادة السياسيين في الغرب يعتقدون أن الإسلام - الذي يصفونه بالرادكالي - هو الآن العدو الأول والخطر الأكبر على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية. لقد كان الاتحاد السوفيتي مضاهياً للغرب في تقدمه العلمي والتقني وما ترتب على ذلك من قوة مادية، وكان في مبادئه وأيدلجياته ومؤسسيه امتداداً للفكر الغربي نفسه. أما المسلمون فما الخطر الذي يمثلونه على الحضارة الغربية وهم اليوم أكثر ما يكونون تخلقاً في تلك العلوم والتقنيات بالنسبة للغرب، إذ إنهم لا يكادون يملكون من القوة المادية شيئاً بينما تملك دولة كالولايات المتحدة من أسلحة الدمار الشامل ما يمكنها - حسب زعمهما - من تحطيم الكرة الأرضية كلها عدة مرات؟

فما الخطر الذي يمثله الإسلام إذن؟ أهو الإرهاب؟ لكن الجماعات الإسلامية التي تسمى بالإرهابية مهما ألحقت بالبلاد الغربية من أضرار فإنها أضرار محدودة لأنها لا تملك هي الأخرى من القوة ما يمكنها من هزيمة الدول الغربية أو حتى إضعافها؟

إن تصرفات الساسة الغربيين، ولاسيما الأمريكيان منهم والبريطانيين، تدل على أنهم لا يحصرون الخطر الإسلامي على حضارتهم فيما يسمونه بالإرهاب، بل يجعلونه في الدين الإسلامي نفسه. ولهذا صاروا يصفون حربهم على الإسلام بأنها حرب قيم وأنها معركة لكسب القلوب والعقول. إنها معركة لأن الإسلام رغم ضعف أهله المادي هو كما يقولون أكثر الأديان انتشاراً في بلادهم. لكننا مرة أخرى نتساءل: ما الخطر في هذا على الحضارة الغربية؟ إذا كانت هذه الحضارة قد قبلت النصرانية واليهودية وهما دينان شرقيان، وإذا كانت قد استفادت في تاريخها من نتاج الفكر الإسلامي في مجالات الدين والفلسفة والعلوم، وإذا كانت قد قبلت العلمانية بل والإلحاد وغير ذلك من أنواع الأيدلجيات، فما الذي يمنعها من أن تقبل الإسلام إذا كان هذا هو ما اختاره بعض أهلها لأنفسهم طوعاً لا كرهاً؟

إنه لا إجابة عن هذا السؤال الصعب إلا القول بأن الأمم الغربية رغم تعددها وتفاوتها ورغم تعدد مكونات حضارتها وتناورها إلا أن فيها فكراً يمثل غالبيتها ويشيع بينها، ويؤثر في تصرفاتها، وأنه هو الذي يحدد موقفها من غيرها من المعتقدات والقيم ولاسيما الإسلامي منها.

لكن هذا ليس بالشيء الغريب ولا الخاص بالحضارة الغربية وأممها، بل هو سنة اجتماعية عامة قررها كتاب ربنا الذي نقرأ فيه:

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأنعام:801)

فكل أمة صغيرة كانت أم كبيرة لها أعمال تراها حسنة سواء كانت هذه الأعمال في نفسها صالحة أو كانت فاسدة. لا حظ أن الآية الكريمة تحدثت عن تزيين العمل لا عن الاعتقاد مع أن العمل تابع للاعتقاد. ربما لأن المقصود هو الاعتقاد الذي يؤثر في العمل ويوجهه لا الذي يدعيه الناس بالسننهم.

في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن هذه السنة الاجتماعية:

منها أن ذلك العمل المزين هو الذي يجمع الأفراد وينشئ بينهم ودا يجعل منهم أمة معينة:

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (العنكبوت:52)

قال ابن كثير:

إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا. وهذا على قراءة من نصب (مودة بينكم) على أنه مفعول له. وأما على قراءة الرفع فمعناه: إنما اتخذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط، ثم يوم القيامة ينعكس الأمر فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنائاً.

ومن هنا أن الأمة إنما تتخذ مواقفها من غيرها بحسب قربه أو بعده من هذا العمل المزين الذي يجمع بينها، فهي لا تتحمل ولا تتسامح مع من يخالفها فيه مخالفة كاملة ويعترض عليها، وإن كان من أبناء وطنها.

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (البقرة:21)

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعْدُونَ فِيهِ مِلَّتَنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَارِهِينَ (الأعراف:88)

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (الأعراف:28)

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (الأنفال:3)

ومنها أنه قد تشذ جماعة من الأمة فترى ما لا ترى غالبيتها:

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (الأعراف: 78)

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ
وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ (غافر: 82)

ومنها أن العاقبة تكون لمن كان على الحق إما بغلبتهم على أعدائهم، وإما بانتقام الله تعالى من أولئك الأعداء كما نرى ذلك في قصص كل الأنبياء مع أقوامهم المعادين لهم.

ما العمل الذي زين للغربيين؟

نعود بعد تقريرنا لهذه السنن الاجتماعية التي فصلها لنا كتاب ربنا إلى سؤالنا الذي بدأنا به: ما العمل الذي زينه الله تعالى للأمم الغربية والذي هو سبب عدائها للإسلام وأهلها؟ إنك لا تجد جوابا واضحا عن هذا السؤال في ما يسمى بالنظريات أو الفلسفات أو الأيدلجيات السياسية الغربية. فالغرب ليس من حيث هذه النظريات أو الفلسفات أو الأيدلجيات أمة واحدة وإنما هو أمة مختلفة ودول حدثت بينها حروب وتفرقت أحزابا وجماعات.

لعل الإجابة هي في ما يسمى بالقيم الغربية التي صار الغربيون الآن يكثر من ذكرها ولا سيما حين يريدون بيان موقفهم من الإسلام وأهله سواء في بلادهم أو في غيرها. فما القيم الغربية هذه التي تجعل من الغرب كله أمة واحدة في مقابل الأمم الأخرى ومنها الأمة الإسلامية؟ إن الذي يكادون يجمعون عليه هو ما يعدونه من مصادر ثقافتهم العامة أو مكوناتها. وهو الفكر اليوناني والحضارة الرومانية والديانتان اليهودية والنصرانية والفلسفة اللبرالية والديمقراطية وحركات الإصلاح والنهضة والتنوير. لم أذكر الإسلام لأنه ليس من المصادر المعترف بها عند عامتهم، وإن كان مما يعترف به قلة من علمائهم. فهذا أحد مؤرخيهم الكبار المعاصرين يقول "إن أوروبا كانت في القرون الوسطى مدينة بالشيء الكثير للإسلام وأنها لم تكن مدينة لأية مدينة أخرى مثلما ما كانت مدينة للإسلام" [1].

إذا تأملنا في هذه الثقافة المعترف بها تاريخيا وجدنا فيها أو في فهمهم وتصورهم لها عناصر مشتركة لعلها هي التي تمثل قيمهم أو عملهم الذي زين لهم. إنها عناصر الشرك والاستكبار والفحش في القول والسلوك. وإليك أمثلة على ذلك:

الفكر اليوناني: يعتقد عامة الغربيين أن الفكر اليوناني هو أساس فكرهم، حتى قال أحد فلاسفتهم إن الفلسفة الغربية كلها إنما هي حواش على كتابات أفلاطون. هذا الفكر اليوناني هو أول ما لا يزالون يرجعون إليه في تأريهم لقضية من القضايا العلمية أو الأدبية أو الفنية. لكنهم

يعتقدون فوق ذلك أن الفكر اليوناني هذا هو الذي وضع أسس الفكر العقلاني المعتمد على المنطق (أليس أرسططاليس هو واضع علم المنطق؟)، وأن الأمم الأخرى - ومنها العرب - لا تعرف هذا التفكير العقلاني المنطقي. حتى قال أحد كبار المستشرقين عن العرب إنهم لا ينكرون التناقض، بل يعدونه مما يزيد العبارة غنى. هذا مع أن العرب عندما اطلعوا على علم المنطق لم يروا فيه شيئا جديدا حتى قال قائلهم إنني كنت أعلم دائما أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد [2]. ذلك لأن الأسس التي يقوم عليها هذا العلم هي من المعايير العقلية التي فطر الله عليها البشر أيا كانوا وخطبهم بها في رسالاته. والعرب كغيرهم من البشر يعلمون بطلان الكلام المتناقض ولذلك فإنهم يحتملون في لغتهم كل شيء إلا التناقض. قال سيبويه عن العرب: "ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقض" [3].

والحضارة اليونانية كانت رغم انجازاتها الفكرية الكبيرة حضارة شرك وفحش. لم يكن شركها كما كان شرك العرب محصورا في الألوهية، بل كان شركا في الربوبية أيضا فلم يكونوا يعتقدون أن آلهتهم مجرد وسائل تقرب صاحبها إلى الله تعالى، بل كانت محل سبحانه. فهذا رب للحب وذاك رب للجمال وثالث رب للحرب وهكذا.

وكانت حضارة فحش لا ترى بأسا بالعري كما تدل على ذلك تماثيلهم المنحوتة وصورهم المرسومة وقصصهم وأشعارهم التي يشيع فيها قصص البغاء والشذوذ الجنسي الذي كان معروفا حتى بين كبار مفكريهم وفلاسفتهم. وقد اهتم مؤرخو هذا الفكر حديثا بهذه القضية وكتبوا فيها كتباً يقال إن أهمها كتاب نشر في عام [4] 1987 ثم تبعه سيل من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

الديانة اليهودية: إن الله تعالى يفضل الناس ويكرمهم بأعمالهم الصالحة الاختيارية، وقد فضل الله بني إسرائيل على غيرهم عندما كانوا آخذين برسالة موسى. لكن تحريف الدين والفهم السيء له حول هذا التفضيل إلى مسألة عرقية فصاروا يعتقدون أنهم باعتبارهم عنصرا هم شعب الله المختار، ثم انتقلت هذه الفكرة إلى الديانة البروتستانتية، ثم صارت عن طريقها كما يذكر لنا صاحب كتاب الشيوعية الأمريكية جزءا من التفكير القومي للشعب الأمريكي ومن قبله للشعب البريطاني وللأفركان الذين حكموا جنوب أفريقيا. فاعتقاد الشعب الأمريكي بأهميته القومية الذاتية ليس سرا لا في داخل أمريكا ولا في خارجها كما يقول

لقد ظل الأمريكان منذ قرون يعتقدون أنهم شيء خاص، شعب وأمة اختارها الله لتقوم بمهمة فريدة بل خيرة في العالم. والرؤساء المنتخبون

يجنحون إلى الدعوة إلى هذه الخصوصية ويؤكدونها[5]

وما يسمونه بالكتاب المقدس مليء بقصص من الفحش منسوبة إلى أنبياء الله - أكرم خلق الله. وقد استغل بعض الملحدين هذه الحقيقة فنشروا كتباً أحصوا فيها كل النصوص التي فيها ما اعتبروه نوعاً من الفحش ثم طالبوا بأن يكون هذا الكتاب من الكتب التي تسمى بالفاحشة والتي يمنع وضعها بين أيدي الأطفال!!

الديانة النصرانية: أما الديانة النصرانية فأخذت عنصر الاستكبار من العهد القديم الذي تعدّه جزءاً من دينها كما رأينا في ما نقلنا قبل قليل. ثم زادت عليه أنه لا نجاة لأحد من الأولين والآخرين لم يتشرف بالإيمان بربوبية عيسى عليه السلام واعتبار موته تكفيراً عنه، وأن هذا تكفير حاصل لا محالة لكل من اعتقد ذلك الاعتقاد مهما كانت سيئاته وجرائمه، هذا مما يزين الفحش لمن كان شخصاً عادياً ضعيفاً، لكن النصرانية زادت هذا الإغراء به في طلبها من قساوسها أمراً مخالفاً للفطرة كانت نتيجته الوقوع في الفواحش سرا والتستر عليها. وقد استغل هذا خصومهم من الملحدين والمنكرين للدين أسوأ استغلال، حتى عدّه الفيلسوف البريطاني الشهير من أسباب كونه ليس مسيحياً.

هاتان الديانتان اللتان كانتا في الأصل ديانتين توحيد منبئتين على وحي الله تعالى إلى موسى ثم إلى عيسى عليهما السلام صارتا بعد التحريف ديانتين شرك. فاليهود أشركوا بتحريفهم لكلام الله وبرفضهم لنبي الله عيسى ثم لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم مأمورون في كتبهم بالاعتراف بهما بل باتباعهما عند ظهورهما. وكان الاستكبار من أسباب هذا الرفض.

الحضارة الرومانية: ورث الغرب من الحضارة الرومانية فكرة الجمهورية وفكرة الامبراطورية التي توسعت بغزو امبريالي فيه كثير من القسوة وأخضاع للشعوب كما يحدثنا المؤرخون الغربيون. وكانت تعج بديانات وثنية قبل أن يجعل الامبراطور قسطنطين النصرانية ديانة رسمية لها.

حركتا الإصلاح والبعث: من أوضح مظاهر الغرور في الثقافة الغربية أنهم يرون أن هنالك نقصاً في كل حضارة أو ثقافة أو ديانة لم تمر بالتاريخ الذي مرت به حضارتهم وثقافتهم وديانتهم. فمما يأخذونه على الإسلام مثلاً أنه لم تحدث فيه حركة إصلاح كحركاتهم تعيد تفسير الدين وتفهمه فهما جديداً يتناسب مع أهواء الثقافة الشائعة. وهم ما يزالون يأملون أن يحدث شيء من هذا حتى يقترب الإسلام من ثقافة الغرب وقيمه. وما زال بعض المغفلين في بلاد الإسلام يغرونهم بأن هذا سيحصل وأن الإسلام سيعود قريباً ديناً معاصراً لا خلاف بينه وبين متطلبات الحضارة الغربية.

حركة التنوير: توصف الحركة التي ظهرت في القرن الثامن عشر في أوروبا بحركة التنوير وبكونها كانت حركة عقلانية. لكنها هي الأخرى لم تنس نصيبها من الدعوة إلى الفحش وتزيينه.

الليبرالية: تقوم الليبرالية على فكرة هي في جوهرها صحيحة، فكرة تقول إن لكل فرد حقوقاً لا يجوز لأحد أن يتغول عليها حاكماً كان أو أغلبية مواطنين. هذه الحقوق هي في الأصل حقوق أعطها الله تعالى لعباده كما نجد ذلك في القرآن الكريم. فلما غلب الشرك وغلبت

العلمانية على الحضارة الغربية ففصلوا مفهوم هذه الحقوق عن أصله ثم لم يجدوا لها أصلاً آخر يتفقون عليه إلا كونها وثيقة أجازتها الأمم المتحدة، أو وضعت في دستور بلد من البلاد. وبهذا صارت هذه الحقوق نفسها هي مما أعطاه بعض الناس لآخرين. ولما كان من أعطوها من المتأثرين بقيم الشرك والاستكبار والفحش فقد فسروا كثيراً من هذه الحقوق بحسب أهوائهم تلك فجعاوها أو أكثرها انحرافاً عن الفطرة السوية. فسروها بحرية الكسب الذي لا قيود عليه فكان أن أدى إلى الرأسمالية، وكان مثلهم كمثّل مدين قوم شعيب الذين اعترضوا على أوامر الله في الكسب

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَافُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَلَأَنفُسِ الرَّشِيدُ (هود: 78)

ثم زعم بعضهم تمشياً مع فكرة الغرور تلك أن هذه الليبرالية مع أختها الديمقراطية (التي هي في الحقيقة متناقضة معها) هي نهاية التاريخ في مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن العالم كله سائر في الطريق الذي رسمته له وسارت فيه الحضارة الغربية. لكن يشكر للرجل أنه استثنى في كتابه المسلمين الذين قال إنهم ما يزالون يتصورون أن لهم بديلاً هو خير من الليبرالية ومن الديمقراطية. ويشكر له ثانياً أنه تنازل عن تلك الفكرة السخيفة وإن كان السبب الذي دعاه للتنازل عنها هو أيضاً سبب سخيف.

وكما فسروا الليبرالية تفسيراً جعلها تؤدي إلى الرأسمالية فقد غلوا في تفسير ما تدعو إليه من حرية وجعلوا أكبر همهم فيها حرية الفحش الجنسي الذي أدى في ما أدى إليه من إضعاف للأسرة، وانحدار عظيم في معدلات الإنجاب حتى قال قائل منهم إننا لم نعد نحتاج إلى عدو خارجي يهزمنا بل نحن الذين نهزم أنفسنا بهذا النوع من الانتحار. وحتى قال كبير من كرادلتهم:

هل تحتاج الديمقراطية إلى صناعة فحش مقدارها بليون دولار لتكون ديمقراطية حقاً. وهل تحتاج إلى معدل إجهاض يبلغ عشرات الملايين"

قال الكاردينال الاسترالي جورج بل هذا الكلام في محاضرة ألقاها بالولايات المتحدة يحذر فيها الغرب من أن الإسلام قد يكون هو البديل إذا لم يعدل الغرب من ديمقراطيته التي وصفها بالفارغة والأناثية[6]. بيد أنه رغم وجود أصوات معارضة كهذه فقد صارت الحرية الجنسية من أهم الحريات التي يتحدث عنها الغرب إن لم تكن أهمها.

الديمقراطية: في النظام الديمقراطي كما هو مطبق في الدول الغربية ودول أخرى كالهند محاسن كثيرة ولا سيما إذا ما قورن بنظم أخرى كالنظام الذي كان سائدا في الاتحاد السوفيتي، وكثير من النظم الدكتاتورية أو شبه الدكتاتورية التي ما تزال سائدة في بعض البلاد. أعمت هذه المحاسن كثيرا من الناس عن أن أصل الديمقراطية أصل شرقي يعطي بعض البشر حق التشريع لبشر آخرين مع أن هذا الحق إنما هو حق لله تعالى. ونسوا أن ما فيها من محاسن ليس بخاص بها وأن كثيرا منه ليس من لوازمها، ونسوا أنه ليس فيها محتوى خلقي وأنها لذلك لم تمنع المستمسكين بها من الإقدام باسمها على استعمار الشعوب واحتلالها واسترقاق أناس ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

العلوم الطبيعية: من المعلوم أن أحسن ما في الحضارة الغربية هو تقدمها الهائل في مجال العلوم الطبيعية وما بني عليها من تقنية كانت هي سبب قوتهم الاقتصادية والعسكرية ووسيلتهم إلى استعمار كثير من بلدان العالم واحتلالها.

ليس في هذه العلوم نفسها ما يجعلها متناقضة مع عقيدة التوحيد أو يدعو إلى فحش أو استكبار، لكن الغربيين ربطوا بينها وبين كل ذلك بسبب قيمهم تلك المنحرفة:

1. غرتهم معرفتهم بالسنن التي أودعها الله تعالى في ما أسموه بالطبيعة، ومعرفتهم لذلك بأسباب كثير من المسببات فصار الغالب عليهم فصل هذا العلم عن الدين، واعتبار الطبيعة كونا مكتفيا بنفسه تفسر ظواهره الطبيعية بظواهر أخرى طبيعية ولا يجوز تفسيرها بأسباب خارجة عن هذا الكون، حتى صار هذا التفسير الإلحادي جزءا من مفهوم العلم كما قلت ذلك في عدة مناسبات وكتابات.

2. وغلا بعضهم فصار يعتقد أنه لا حق إلا ذلك الذي يأتي عن طريق منهج هذه العلوم فأغراهم هذا بإنكار كل ما جاءت به الأديان اعتمادا على الوحي الإلهي.

3. بل إن بعضهم صار يستغل هذه العلوم لتأييد الميل إلى الفواحش التي منها فاحشة الشذوذ وقالوا إنها عند بعض الناس شيء فطري موجود في "جيناتهم".

4. ثم ارتبط هذا التطور العلمي بالغرور الأوربي إذ اعتقدوا أنهم إنما سبقوا غيرهم فيه بسبب عقلانيتهم التي ورثوها عن اليونان، وأن غيرهم لم ينجز ما أنجزوا لأنهم ذوو تفكير خرافي.

5. وقد زاد من فتنهم بهذا تخلف المسلمين في هذه المجالات، تخلفا بدؤوا يعزونه إلى الدين الإسلامي ويقول بمثل قولهم فيه بعض المرتدين من المنتسبين إليه.

طبيعة القيم الغربية

كيف صارت تلك المصادر والمكونات المتنافرة شيئا واحدا يسمى بالقيم أو الثقافة الغربية؟

1. صارت كذلك أولا لسبب ذكرناه سابقا وهو كونها كلها جزءا من تاريخهم الذي ما يزالون يدرسونه في مدارسهم وجامعاتهم، والذي ما يزالون يكتبون عنه ويتأثرون به.

2. وصارت كذلك لأنه ما من مكون من مكوناتها إلا وله أنصار كبار من المفكرين أو من الجماعات أو الأحزاب.

وصارت كذلك لأن العلمانية وهي امتداد للشرك الموجود في كل تلك العناصر التي ذكرناها قد صارت هي الثقافة الطاغية التي يعاد تفسير العناصر الأخرى - بما فيها العناصر الدينية - لجعلها موافقة لها أو متسامحة معها.

وصارت هذه الأديان تمدح ويتسامح معها بقدر تصالحها مع العلمانية وخدمتها لها. فها هو الفيلسوف الألماني الشهير هابرماس المعروف بعلمانيته يقول:

النصرانية لا غيرها هي الأساس النهائي للحرية والضمير وحقوق الإنسان والديمقراطية - وهذه هي أهم معايير الحضارة الغربية [7]

وقبل قرن كتب عالم الاجتماع الألماني ماكس فبر كتابه الشهير عن الأخلاق البروتستانية وروح الرأسمالية.

والنصارى بدورهم جعلوا يفسرون الدين تفسيراً يتوافق مع أهواء عصرهم. فأكثر كتابهم اليوم لا ينكرون الشذوذ ويفسرون قصة قوم لوط وما حصل لميديننتهم سودوم إما بأنها قصة رمزية، أو أن الذين أنكروا هذا الفعل من كتاب البابل كانوا متأثرين بثقافة عصرهم.

3. ولأن الفكر العلماني وما يستتبعه من قيم صار هو الفكر الطاغية الذي يمثل الإطار العام للثقافة الغربية وقيمتها أضحت الخلافات خلافات في داخل هذا الإطار فلم تعد ذات خطر. ولذلك نجد الملحد والنصراني أستاذين في كلية واحدة، ونجد الشاذ وغير الشاذ جنديين في جيش واحد وصار النساء كلهن يتبعن في مظهرها واحدا وهكذا.

4. قد يقول قائل إننا نجد أمثلة لما عزوته إلى الحضارة الغربية في كل الأمم بما في ذلك الأمم الإسلامية. فما الذي يميز القيم الغربية في هذا عن غيرها؟ نقول إنه مما لا شك فيه أنه لا تكاد تخلو أمة حتى من فاحشة الشذوذ بعد أن سنهها قوم لوط، وأن الشعور بالكبر قد يكون أيضا طابعا لأمة لا تنتمي إلى الحضارة الغربية. وأن الشرك موجود حتى بين المنتسبين إلى الإسلام. لكننا نقول أيضا إن هنالك فرقا بين أن يكون الزنا أو الشذوذ أو الجهر بالسوء من القول في نظر الأمة جريمة أو ذنبا يستنكره مجتمعها ويعاقب عليه قانونها، وأن يكون أمرا مقبولا لا يستنكره مجتمع ولا يعاقب عليه قانون، وإن استنكره بعض الأفراد. هذا الأخير هو ما تمتاز به القيم الغربية الآن متأثرة بتاريخها ذلك. لقد أصبح المستنكر فيها، وربما كان المعاقب عليه فيها، هو استنكار الفحش ولا سيما فاحشة الشذوذ. فهذا الكاردينال راتزنجر الذي صار البابا الحالي يشكو من أن أحد القساوسة البروتستانت سجن لمدة شهر في السويد لأنه استنكر الشذوذ الجنسي استنادا إلى حجج من كتابهم المقدس!

5. هذه العناصر ولا سيما عنصر الكبر هي التي زينت للغربيين احتلال الشعوب الأخرى واستعمارها واسترقاق بعض أهلها. لقد كانت الحركة الاستعمارية الاحتلالية حركة اشترك فيها أو شجعها أو وافق عليها قادة الثقافة الغربية كلهم إلا ما ندر. لم تكن حركة سياسية فحسب وإنما كانت حركة اشترك فيها الكتاب والشعراء والفلاسفة ورجال الدين كما بين بعض ذلك إدوارد سعيد في كتابه عن الثقافة والاستعمار.

ما العمل؟

إننا إزاء تحد كبير على ديننا وأمتنا فما ذا نحن فاعلون؟ ليس هذا بالسؤال الذي يختص بالإجابة عنه فرد واحد لأنه سؤال للأمة كلها علمائها وزعمائها وعامتها. فالإجابة التي أقترحها إنما هي جهد فرد مقل من أفراد هذه الأمة.

أرى:

أولا: أن ننأى بأنفسنا عن مشاعر الحزن والضيق والأسى فإنها مشاعر سلبية لا تحل مشكلة خارجية وإنما تنشئ مشكلات نفسية. وما أكثر ما يحذرنا كتاب ربنا من أمثال هذه المشاعر السلبية، وما أكثر ما يذكرنا علماءنا الأفاضل بهذه المعاني القرآنية. فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في معرض تعليقه على حديث "بدأ الإسلام غربيا وسيعود غربيا كما بدأ: "

وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب. وهو منهى عن هذا. بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتحقير

ثانيا: أن نكون على يقين بأن مداينة أعداء الحق ومحاولة إرضائهم بالاستجابة لمطالبهم - وهي مطالب قديمة - بتغيير هذا الدين وإعادة تفسيره بما يتناسب مع أهوائهم المعاصرة، أن هذا فوق كونه خيانة علمية فإنه لن يجدي شيئا في حل المشكلة. نعم إن الأعداء سيرضون عن كل محرف للدين بمقدار تحريفه. لكن هذا التحريف لن يزيدهم إلا شرا إذ يرون أن المسلم المحرف يقترب منهم مع أنهم ثابتون في

مكانهم، فيطمعون منه ثم من غيره في قرب أكثر، ويحاولون أن يجعلوا منه وسيلة للكيد من غيره من إخوانه المسلمين. لكن القاعدة هي ما قال الله تعالى عن كل من زين له عمله أنه لن يرضى عنك رضا كاملا إلا إذا اتبعت ملته:

وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (النساء: 98)

ثالثا: لماذا لا نرى في هذا الهجوم الغربي على ديننا جانبه المشرق وهو دلالته على أننا بدأنا نحيا وبدأنا نصحو إذ لو ظللنا أمواتا أو غافلين أو مغشيا علينا لما خاف منا أو اهتم بنا أحد. فعلينا. فعلينا أن نستمر في هذه الصحوة وأن نضاعف من حيويتنا ونشاطنا واعتزازنا بديننا واستمسакنا به، آملين أن نكون للغرب منارات هداية وقوارب نجاة.

رابعا: إن الرؤساء الغربيين يصرحون بأن الحرب على ما يسمونه بالإسلام الراديكالي حربان حرب أيدلجية يقولون إنها لكسب العقول والقلوب، وحرب سنانة تساعد على تحقيق أهداف الحرب الأيدلجية. أما نحن فما نزال منتصرين في ما أسموه بالحرب الأيدلجية. إن ديننا هو الذي يزحف نحوهم ويكسب كل يوم من عقولهم وقلوبهم، وإن أديانهم وقيمهم وأيدلجياتهم هي التي توليه الأديار. وهذا أمر يدعونا إلى المضي لا إلى التواني في نصره ديننا بالحجج العقلية والعلمية والمعايير الخلقية. إن مشكلتنا هي في الحرب السنانة. لقد فرطت أمتنا في

الأخذب بالأسباب العصرية لاكتساب القوة التي دعاها ربها إلى إعدادها. لقد آن الأوان لأن نبذل جهودا كبيرة في اكتساب العلوم الطبيعية المرتبطة بالتقنية والمساعدة على اكتساب القوة الاقتصادية والعسكرية. ويجب أن تكون هذه الجهود على مستويين، مستوى شعبي عام ينشر مبادئ هذه العلوم بين الناس ويجعلها جزءا من ثقافتهم الشعبية، ومستوى تخصصي تتعاون فيه الدول العربية على الأقل حتى يكون لنا علماء مبرزون مكتشفون ومخترعون ومنظرون في كل المجالات المرتبطة بالتقدم التقني.

إننا لا نريد أن نكون أقوياء لنعتمد على غيرنا، وإنما لنهرب ونردع من تحدته نفسه بالاعتداء علينا. إننا نعلم أن السلم في مصلحتنا، نعلم هذا من ديننا ومن تجاربنا، فنحن حريصون عليه واثقون بأن عاقبته خير إن شاء الله.

خامسا: بما أن الغرب ليس كله كتلة واحدة صماء معادية للإسلام، بل فيه جاهلون بهذا الدين، وفيه مغررون، وفيه منصفون مدافعون عن حقوق الناس، وفيه عقلاء يرون أنه ليس من مصلحتهم شن حروب شاملة دعائية كانت أم قتالية على الثقافات الأخرى، وفيه ... وفيه ... فيجب عند المعاملة أن لا نشمل الجميع بخطاب واحد لا يميز بين محق ومبطل، ومعتد ومنصف. إن التفرقة بين هذه الأصناف ومعاملة كل بحسب موقفه أمر يتطلبه العدل الذي يقوم عليه بنيان الدين الحق، ثم إنه سياسة مريحة تؤدي إلى نتائج أفضل.

سادسا: لكن التقدم الحقيقي لأمتنا لا يكتمل إلا بتقدم آخر لا يحتاج منا إلى جهد كبير. فكما نأخذ بوسائل عصرنا في التقدم العلمي التقني، فكذلك يجب أن نعتبر